مجلة روافد
للدراسات والأبحاث العلمية في العلوم الاجتماعية والإنسانية
المجلد 06 (03) ديسمبر 2022 ص ص 904-924

وصف الرحالة الايرلندي " ماثيو كاري Mathew Carey" لأوضاع الجزائر خلال العهد العثماني نهاية القرن 18 وبداية القرن 19 م

The Irish Traveler "Matthew Carey" Description Of Situations In Algeria During The Ottoman Period At The End Of The Eighteenth And Early Nineteenth Centuries

محمد سريج*
[1] جامعة حسيبة بن بوعلي، الشلف (الجزائر)
البريد الالكتروني المهني: m.seridj@univ-chlef.dz

تاريخ الإيداع	تاريخ القبول	تاريخ النشر
2022/06/15	2022/10/23	2022/12/01

الملخص: عرفت الجزائر في الفترة العثمانية توافد رحالة أوربيين، منهم ألمان وأنجليز وفرنسيين ونمساويين وإسبان وإيرلنديين وغيرهم، ومن هؤلاء الرحالة نجد: الرحالة الايرلندي الأصل، أمريكي الجنسية مثيو كاري Mathew Carey الذي قدم الجزائر أواخر القرن 18 م، وبقي إلى غاية أوائل القرن 19م، إذ وصف الجزائر بشكل عام طبيعيا بحيث ركز على معظم المدن الكبيرة منها الجزائر، تلمسان، سطيف وتبسة وبسكرة ونقاوس، ومستغانم، شرشال، تنس، وهران وغيرها، ثم عرج على الحديث عن الجانب السياسي سيما ما تعلق بنظام الحكم العثماني في الجزائر وعلاقته بالرعية ومعاملته للأسرى الأوربيين وغيرها، والجانب الاجتماعي أيضا من خلال عادات الزواج واللباس والطعام والأخلاق بالإضافة إلى الجانب الاقتصادي من حديثه عن الضرائب.

الكلمات المفتاحية: *الرحالة؛ الجزائر؛ عهد عثماني؛ الرعايا؛ حكم عثماني؛ الضرائب.*

Abstract: During the Ottoman period, Algeria knew the influx of European globetrotters, including Germans, English, French, Austrians, Spanish, Irish and others, and among these globetrotters we find: The Irish globetrotter with American citizenship, Matthew Carey, who visited Algeria in the late 18th century AD, and stayed there until early 19th century AD. Where he focused on the major cities such as Algiers, Tlemcen, Setif, Tebessa, Biskra, Nagous, Mostaganem, Cherchell, Tennis, Oran and others. Then

* **المؤلف المرسل**

he studied with the social aspect of marriage customs, dress, food, and morals, and completed it with the economic aspect such as taxes

Keywords: *globetrotters; Algeria; Ottoman era; nationals; Ottoman rule; Taxes*

مقدمة:

الجزائر بلد شاسع المساحة، متنوعة التضاريس والمناخ، تتوسط شمال افريقيا، وتعد قلب المغرب العربي، كل هذه الامتيازات جعلت من الرحالة الأوربيين يهتمون بها، إما للتعرف عليها جغرافيا أو سياسيا أو اجتماعيا وثقافيا وعلميا، فتعددت الرحلات الاوربية خلال القرن الثامن عشر للميلاد من الفرنسيين نجد: فونتير دي برادي Paradis De Jean-Michel Venture الذي زار الجزائر عام 1789 وقدم عملا بعنوان Notes Sur Alger تضمن معلومات قيمة عن هذا البلد ومن بينها الجزائر العاصمة، إذ وصف ما تملكه من مزارع و بساتين و الفئات السكانية من يهود و كرافلة وأتراك والانجليزي توماس شوThomas Shaw ، الذي له كتاب عن زيارته للجزائر عنوانه " رحلة في ولاية الجزائر 1765" تناول فيه معلومات عن الجزائر ديموغرافيا و مناخيا و سياسيا و ثقافيا ، ولوجي دي تاسيL.de Tassey الذي زار الجزائر وقدم دراسة قيمة عنها عام 1725 عنونها بـــ:"تاريخ مملكة الجزائر" Histoire du royaume d'Algérie وفرانشيسكو خمينيث Francisco Jiménez الذي قدّم ملاحظات هامة عن الجزائر ووهران خلال رحلته إليهما من عام 1717 إلى 1720 م عرض معلومات عن الأسرى المسلمين في اسبانيا و غيرها في ثلاث مجلدات وايرلندا التي قدم منها الرحالة " ماثيو كاري" Mathew Carey، هذا الأخير كانت له رحلة للجزائر أواخر القرن 18 م وبقي إلى بدايات القرن 19 م، إذ قام بوصف عام للجزائر العثمانية متحدثا عن العديد من الجوانب ذات البعد السياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي، وهذا الذي نود أن نستجليه في هذه الدراسة بطرح الإشكالية التالية: ما مميزات الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية في

الجزائر أثناء الحكم العثماني في أواخر القرن 18 وبداية القرن 19 م في نظر الرحالة " ماثيو كاري".

قبل الحديث عن مختلف الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية للجزائر أثناء الفترة العثمانية بجدر بنا الحديث عن هاته الشخصية الايرلندية الأصل الأمريكية الجنسية، وأهم ما جاء به فيما يتعلق بجغرافية البلاد والتي وصف فيها العديد من المدن الجزائرية، فما هي المدن التي وصفها؟ وما مميزاتها؟

01 ــ من هو الرحالة ماثيو كاري Mathew Carey؟:

ماثيو كاري Mathew Carey: 1836/1760 م، من مواليد دبلن Dublin ايرلندة عام 1760 م، من عائلة متوسطة الحال، دخل عالم النشر وبيع الكتب عام 1775 م، ولما بلغ سن السابعة عشر نشر كتيبا ينتقد فيه استحقاقات المبارزة وتلاه كتيب آخر ينتقد فيه صرامة قانون العقوبات مما جعله يتعرض لتهديد الإدارة بمقاضاته، والتي سببت له الانتقال إلى باريس سنة 1779م لتفادي الاعتقال، وهناك التقى بالدكتور بن جامين فرانكلين Benjamin Franklin الذي وظفه للعمل في مطبعته الخاصة، اشتغل كيري لحساب فرانكين سنة قبل العودة إلى ايرلندة، حيث أدار تحرير مجلتين هما: The Freeman 's journal و Volunteer 's The journal، فرّ من ايرلندة سنة 1784 م، واستقر بالولايات المتحدة الأمريكية كبلد ناشئ في ظل حكم حر من الحكم الايرلندي، ولما وصل إلي فيلادلفيا اقرضه الجنرال لافايات Lafayette مبلغا ماليا لترتيب أموره واستعمل هذا المبلغ المالي في إيجاد تجهيزات النشر وبيع الكتب وأسس مجلات هي: "بنسلفانيا هيرالد" Pennsylvania Herald و"كولومبا مغازين" Magazine Columbia و"المتحف الأمريكي" American Museum، تقاعد عام 1825 م تاركا أعماله لابنه هنري كيري Carey Henry وانضم إلى هنري صهره الأصغر إسحاق ليا Isaac Lea، وأصبحت الدار من أشهر دور النشر في البلاد لعدة سنوات ومما نشر من أعماله الموسوعة الأمريكية

Encyclopedia Americana القاموس الجرماني Dictionary of German Lexicon، توفي ماثيو كاري سنة 1839 م، وتقاعد هنري عام 1846 م (كاري، 2014، صفحة 05 - 06).

2. وصف عام للجزائر:

وصف الرحالة الايرلندي الأصل الأمريكي الجنسية الجزائر جغرافيا وطبيعيا وركز على أهم المدن خاصة الساحلية منها مبينا بعض ما تمتاز به من مناخ وثروات طبيعية واخترت البعض منها على سبيل المثال لا الحصر:

1.2 وصف الجزائر بشكل عام:

يقول :" تمتد الجزائر على مساحة 480 ميلا من الشرق إلى الغرب، وعرضها 320 ميلا، لكن مسافة 100 ميل من الساحل البحري إلى بداية الصحراء القاحلة ومعظمها غير مأهول سواء بالإنسان أو الحيوان، يحدها شمالا البحر المتوسط وجنوبا جبال الأطلس وشرقا بلاد تونس وغربا واد ملوية أي المغرب (كاري، 2014، صفحة 9 ــ 10)، يقول:"... لم يكن للجزائر فيما سبق سوى مياه الأمطار وبعد وصول عرب الأندلس قاموا ببناء قناتين لجلب المياه وبذلك تم تزويد المدينة بمياه وافرة وعذبة من الجبال المجاورة والمنطقة المحيطة بالعاصمة جد خصبة فهي حاضرة الإقليم وحدائق وبساتين ذات أشجار قيل إنها لا تحصى، فالجزائريون يجهلون فن التقليم وتطعيم الأشجار فحدائقهم ليس لها أسوار لكنها محاطة بسياج وفيها أنواع خاصة مثل أشجار التين ومن بين الأراضي الغنية هناك سهل متيجة، فالأندلسيون أعطوا للزراعة إضافة بما جادت بها قريحتهم إذ عرفت الأرض في عهدهم تحسنا ، بل وتغيرا ملحوظا في أنواع كثيرة من المزروعات (سعيدوني، 2003، صفحة 38-39) فهو مثير للإعجاب لما يتمتع به من خصوبة فهو يتربع على خمسين ميلا طولا وعشرين عرضا ويضم العديد من الفيلات ومن البساتين ذات الرائحة العطرة والحدائق السارة جدا وتنتج التربة فواكه جد لذيذة

وبوفرة والحبوب بكل أنواعها ومن ثم فان السكان يتمتعون بها مرتين في السنة وأحيانا يكون الإنتاج ثلاث مرات، فالحمامات الساخنة المعدنية توجد قرب هذه المدينة فالحمام الرئيسي يتربع على اثني عشر قدما مربعا وأربعة في العمق فماؤه ساخن وعندما يمتلئ الحوض الأكبر فان المياه تجري من خلاله إلى حمام آخر اقل حجما منه حيث يستحم اليهود لأنه لا يسمح لهم استعمال نفس الحمام مع المسلمين. (كاري، 2014، صفحة 20)

لا ينكر أحد الوصف الذي جاء به الرحالة وما قدمه الأندلسيون أثناء هجرتهم لشمال إفريقيا ومنها المغرب الأوسط (الجزائر) إذ جاءوا بالعديد من الإضافات في المجال الزراعي وحتى في الحرف وغيرها وعملوا على إحداث أنواع جديدة من أنواع الأشجار وتهجين البعض مما أحدث ثورة في الزراعة ناهيك عن قنوات المياه والآبار والعيون وغيرها .

2.2 قسنطينة: اتخذت اسمها من ابنة الإمبراطور قسطنطين الأول 337/274 م، الذي اعتنق المسيحية سنة 312 م وجعلها ديانة الدولة الرسمية سنة 325 م، وفي سنة 395 م انقسمت الدولة الرومانية إلى غربية وشرقية وعاصمتها القسطنطينية ولم تعمر الدولة الغربية طويلا حتى ورثتها الشرقية حيث سقطت عام 776 م إثر الهجمات الجرمانية (ابن الأثير، 1938، ص 497 وما بعدها)

هذه المدينة المحصنة جدا فيها العديد من المباني القديمة ويقيم بها الباي وتحت أوامره 300 فارسا تركيا و1500 من جنود الأهالي (كاري، 2014، ص 11)، وسكان قسنطينة أغنياء وكانت في السابق مقر إقامة جنس من الملوك غير أنه في سنة 1520 تم احتلال كامل المنطقة من قبل بربروسة الذي اكتسب شهرة في معاقبة الجنس البشري (كاري، 2014، ص 12). والتي ألحقها بحكومة الجزائر، وبها آثار للرومان، وتقع على جبل صخري وبجوارها محطة تجارية فرنسية يتعاطى الأهالي التجارة مع الفرنسيين بالشمع والصوف وجلود الحيوانات المدبوغة وغير المدبوغة (كاري، 2014، صفحة 12)

لدينا تحفظ عن هذا التعبير المسيء لبربروسة بحكم أنه يعتبرهم غزاة وجاءوا لمعاقبة الأهالي والحقيقة التاريخية أن سكان بجاية عام 1512 م استنجدوا بعروج وخير الدين ضد الاسبان وأعيان مدينة الجزائر استنجدوا أيضا عام 1519 بالعثمانيين (التميمي، 1976، ص ــ ص 119 ــ 120)

3.2 وهران :

تقع على بعد 250 ميلا غرب الجزائر، جزء منها سهلي والأخر مرتفع جبلي، وبها حامية من 10 إلى 12 ألف للدفاع عنها بنجاح ضد العدو، وبما أن سواحل اسبانيا وسفنها التجارية قد عانت الكثير من قراصنة هذه المرسى فان فرديناند ملك اسبانيا (1452-1516م) ،.قرر القيام بمحاولة القضاء عليها، ودخل المدينة الكاردينال اقزيمانس وقتل 4000 من البرابرة، وأطلق سراح 20 ألف أسير مسيحي وقاوم الجزائريون على مدى قرنين لاستعادة المدينة لكنهم فشلوا في ذلك وأخيرا في سنة 1708 استعادوها، وفي 1732 قام الإسبان بالإنزال في وهران ووجد الاسبان 146 قطعة مدفعية إلى الهاون وترك الأهالي المواد الغذائية لخمسين مركبا (كاري 2014، صفحة15) .

4.2 تلمسان:

كانت عاصمة لمملكة تحمل نفس الاسم تقع على بعد 90 ميلا جنوب غرب وهران، محاطة بسور قوي وبحصن شديد لها خمسة أبواب وقلعة تضم الكثير من الثكنات للانكشاريين بها 150 مسجدا و160 حماما عموميا ومنذ توقفها كمركز لحكومة مستقلة فإنها انكمشت لتصبح آثارا وخرابا وتقلص عدد المساجد إلى 08 والحمامات إلى 04 ومعظم سكانها فقراء (كاري، 2014، صفحة 16).

3. وصف نظام الحكم العثماني في الجزائر:

1.3 كيفية وصول العثمانيين للحكم في الجزائر

اهتم الرحالة " كاري" بالحديث عن نظام الحكم العثماني في الجزائر، إذ وصفهم بكونهم جمهورية عسكرية قائلا:" تحتفظ الجزائر باسم مملكة وهو نعت الذي يمكن وبدون أسف شطبه من كل معجم إنساني، ومهما كان فإنها جمهورية عسكرية ولو انه بالتأكيد لا يمكن تضفي مجدا على شكل من أشكال تلك الحكومة، فالقانون المحلي يسير بهذه الكلمات " نحن الكبار، والأعضاء الصغار لمليشيا الجزائر التي لا تقهر ولا تغلب" (كاري، 2014، صفحة 24)، يؤيده في ذلك وليام شالر William Shaller في قوله:"... والواقع أن هذا النظام عبارة عن جمهورية عسكرية ينتخب رئيسها مدى الحياة " (شالر، 1982، صفحة 42)، يضيف:" وهو حاكم مطلق يطيعه الجميع في حياته وحكمه متزعزع (شالر، 1982، صفحة 44)، وهو بشكل صغير يشبه النظام الذي قام في الإمبراطورية الرومانية بعد وفاة " كمودس"، وهذا النظام الحكومي يقوم على رئيس يتمتع بالسيادة ويحمل لقب الداي والديوان ما هو إلا تشكيلة عسكرية (شالر، 1982، صفحة 42)، كما أبدى رأيه الرحالة " كاري" في مسألة انتخاب الداي قائلا:" ينتخب الداي من الديوان المكون من الجيش ونادرا ما سضمن منصبه بدون اضطراب وإراقة الدماء وكثيرا ما يسقط بخنجر سفاك و كأنه يختار تعبير أحد الأبطالOssian :" ولدت في وسط المعارك وخطواتي يجب أن تسير بالدم حتى القبر"، فالطريقة التي يمارس بها سلطته تتجاوب مع تلك السلطة التي تحصل عليها من ذي قبل (كاري، 2014، صفحة 24)، ويذهب وليام شالر مذهب كاري قائلا:" ...و انتخاب الداي يجري عادة في جو من المؤامرات وتنتصر فيه الفئة القوية من الانكشارية، وهذا الانتخاب تصحبه دائما مأساة دموية وحتى أنصاره وأصدقاؤه يقتلون وتنهب أموالهم أو يبعدون وفي ظرف أربع وعشرين ساعة ينتهي كل شيء (شالر، 2014، صفحة 44)،

و الديوان مجرد من صلاحياته وكل الأمر يعود للداي يقول شالر: "... والواقع أن الديوان مجرد حبر على ورق في دستور المملكة وأصبح الداي هو من يعين وزراءه بنفسه" (شالر، 1982، صفحة 43)، ويذهب "كاري" أبعد من ذلك إذ يصف الداي بأنه مستبد وأنه لا يصل إلى السلطة إلا على جثث القتلى وهو ما جاء به في كتابه أنه كان يزور الداي في مناسبات، ويجده أحيانا في قاعة استقباله بملابسه الملطخة بالدماء، وجرت العادة أن يحضر الداي عند قطع رؤوس رعاياه" (كاري، 2014، صفحة 25)، ويروي "كاري" مما سمعه عن زميله " بروس" في الحديث عن تصرفات الداي يقول:" أنه يعرف شخصا نفذ فيه الحكم ليس لذنب كبير وإنما كان يحمل وارية (صوانة البندقية القديمة)، فاتهام المرء والحكم عليه يتمان في وقت قصير وهذا مثال على ذلك :" أيها النذل معك حجر القداحة، إذن أنت مقدم على مؤامرة ضد الدولة " (كاري، 2014، صفحة 25)، ويدعم هذا الطرح وليام شالر بقوله: "حدث كثيرا أن ساعد الحظ أحط الأشخاص وأسوأهم للخروج من الحالة التي كانوا فيها مغمورين ليرتقوا عرش الجزائر، منهم على سبيل المثال يمكن أن تشاهد سبعة قبور لمغامرين أعلن انتخابهم ملوك وقتلوا جميعا في ذلك اليوم ولإثبات مدى حقارتهم دفنوا على قارعة الطريق (شالر، 1982، صفحة 45)

فآغا الانكشاريين هو المسؤول الموالي للداي في الكرامة والسلطة، غير أنه لا يتمتع بمنصبه هذا سوى شهرين ثم يحال على التقاعد مع معاش، والضباط الآخرون الذين لهم أهمية هم كاتب دولة وأربع وعشرين عقيدا تابعين للآغا وثمانية من كبار الضباط، فحق الأقدمية محفوظ بالضبط، وأي إخلال بهذه المسألة يتوقع منه أن يؤدي إلى ثورة وسط الجنود وربما قد يكلف الداي حياته، وإلى جانب هؤلاء الضباط هناك ضباط آخرون ينتمون إلى القوات التركية الذين يشكلون جهازا منفصلا، وللداي فيلق من الحرس وهو فيلق ضروري، فأي جندي عادي له شجاعة يستطيع قتله، عندها له الحظ في أن يصبح خليفته، فهذه التجارب وقعت فعلا ذلك أنه منذ بداية القرن 19 م قام ستة جنود عاديين

بمؤامرة لقتل داي احدى الدويلات المغاربية، حيث أحدثوا له جرحا مميتا في قصره وسط جمع من الحضور (كاري، 2014، صفحة 25 ــ 26)، ويضيف: "اعتلى العرش أحد المتآمرين كخليفة منتظر في الحين وأشهر سيفه معلنا أنه سيوفر العدالة للجميع، اتجه جنوده الخمسة الذين قاموا بالعمل معه نحو القاعة لتثبيت حق الملك لسيدهم الجديد ولم يتجرأ أحد من الحاضرين إحداث تشويش حول ما حدث، ولم يبق في الحكم سوى عشر دقائق وإذ بجندي متمرس غير ملحوظ يطلق عليه النار من بندقية صغيرة، بعدها عجل الحاضرون بقتل الخمسة الآخرين فورا، وقال القائد الجديد:" إنه إذا استولى الغاصبون على السلطة وحلوا محله عشرين دقيقة فإنه كان بإمكانه اعتلاء العرش" (كاري، 2014، صفحة 26)

فالتركي هو الذي له مكانة في هذه البلاد والآخرون مغامرون ليسوا أتراكا، بل هم مزيج من أمم (كاري، 2014، صفحة 11)، وهذا المزيج منهم الأعلاج وهم الذين اعتنقوا الإسلام بعد النطق بالشهادة ثلاث مرات (بلبراوات، 2008، صفحة 28)، واندمجوا يرأسهم آغا وهو شبيه بحاكم بلدة (كاري، 2014، صفحة 11)، فالميليشيات التي تنتخب الداي إما أنها تركية أو من المرتدين فعددهم يختلف حسب روايات مختلف الكتاب من ستة آلاف وخمس مائة إلى اثنا عشر ألف، فالداي يدفع عدد من الصبيان وبعض الهدايا السنوية للأخرى، فدخله يزداد أو يقل حسب ما يأخذه من الرعايا (كاري، 2014، صفحة 27)، وهذه الحكومة تتسم بجميع الصفات التي تلازم شركة تجارية كبيرة والاعتبار الأول هي ثروة الحاكم الشخصية (شالر، 1982، صفحة 58).

2.3 معاملة الأسرى المسيحيين:

عندما يستولي جزائري على غنيمة فإنه يبحث عن النوعية ويستنطق الأسرى، فإن لم يثق فيما يدلون به عن أنفسهم فإنه يضربهم بالعصا على القدمين حتى يتلقى جوابا شافيا، وعندما يحصل على ما يريده من معلومات وبعد تجريدهم من ملابسهم ينقلهم إلى شاطئ،

حيث يحملهم إلى قصر الداي مباشرة، وهنا يجتمع القناصل الأوربيون لمعرفة أسرى بلدانهم التي هي في سلام مع الجزائر وفي حالة وجود أسراهم فإنهم يطالبون بإطلاق سراحهم على أنهم مسافرون، وإن كانوا يعملون على ظهر السفن لأي بلد في حرب مع قوة لا تقهر ولا تغلب (الميليشيا) فإنهم لا يستطيعون تحريرهم من دون دفع الفدية كاملة، وبعد التسوية بين الداي والقناصل يعرف جزء من الأسرى بأهل الحرية والقسم الباقي يبقى أسبرا، ثم يأتي الداي ليختار بعض الأسرى من القباطنة والجراحين والنجارين والأيدي المفيدة، بعدها ينقلون إلى سوق العبيد ويعلن البراح رتبهم ومهنهم والسعر الخاص بكل واحد منهم ويقادون إلى البلاط ويباعون إلى أفضل العارضين ثمنا، وإن زاد أي مبلغ قدم بعد السعر الأول عليهم فإن هذه الزيادة تؤول للحكومة، فالأسرى والمالكون ليس لهم إلا السعر الأول المقدم على الأسرى، وطبقا لهذه العادة من البيع والشراء للعبيد فإننا لسنا مؤهلين باتهام الجزائريين بأنهم يتصفون بالوحشية لوحدهم، فمسيحيو أوربا وأمريكا يقومون بهذه التجارة مئات المرات وأكثر شمولية من الجزائريين (كاري، 2014، صفحة 29).

موضوع معاملة الأسرى لم يتكلم فيه "كاري" فقط وإنما العديد من المؤرخين وأتحدث هنا عن الأوربيين ومنهم شهادة المؤرخ الفرنسي شارل أندري جوليان Charles. André Julien الذي قال:" كانت معاملة الفرنسيين للأسرى الجزائريين قاسية جدا على عكس ما كانوا يروجون له على أن الجزائريين هم من كانوا يمارسون السلب والنهب وممارسة القرصنة يقول :" إذا كانت حياة الأسرى الأوربيين المستعملين في تجديف السفن تثير أكبر شفقة، فقد كانوا أسعد حظا بكثير من الأسرى البربريسكيين (من بلدان المغرب) الذين كانوا مستعملين في تجديف سفن ملك فرنسا والذين كانوا يوسمون بالحديد المحمي ويمنعون من ممارسة شعائر دينهم ". (نايت بلقاسم، 2012، صفحة 75)، ومثال أيضا عن وحشية الأوربيين تجاه العبيد يقول كاري:" فالفرنسيون الآبقون جلبوا معهم جمع من

العبيد ومعظمهم جرحوا أثناء عملية الفرار، وأعلن سادتهم عن جوائز لمن يلقي عليهم القبض وفي نفس الوقت فإن الفرنسي يعمد إلى نقش اسمه بأحرف كبيرة على صدر الأسير أو في منطقة أخرى من جسده وعليه طابع في ذلك الجزء من الجسم معلم بحديد ساخن أحمر (كاري، 2014، صفحة 30)، ولكن عكس تماما ما كان يقوم به هؤلاء فإن معاملة الجزائريين للأسرى المسيحيين كانت على خلاف ذلك وهو ما يؤكده كاري نفسه:" أنه في مدينة شرشال كان بها ستة حمامات تحولت إلى سجون للأسرى المسيحيين وبها كنيسة صغيرة لممارسة ديانتهم بشكل حر ويسمح لكل أسير بالتجوال خارج السجن في ساعة معينة صباحا وعليه بالعودة في الساعة المحددة ليلا من أجل غلق باب السجن، ويسمح لكل واحد منهم بمطرح وبطانية للسرير، أما ما تعلق بالأشغال التي يمارسها الأسرى فغالبا ما يستعمل هؤلاء الأسرى المسيحيون في نقل الأحجار من المحاجر على مسافة من المدينة (وهنا يقصد شرشال)، حيث يضعونها على الرمال للدفاع عن المرفأ وصد الأمواج المندفعة، ولا ينتهي هذا العمل الشاق إطلاقا ذلك لأن البحر يدفع الأحجار بعيدا وباستمرار ومن ثمة يصبح بالضرورة تزويدها بشكل دائم (كاري، 20124، صفحة 18) .

3.3 تنفيذ العقوبات:

العقاب العام في الجزائر مقابل الإساءة، والجريمة ليس الإعدام، بل الضرب بالعصا والوسيلة لذلك غالبا ما يكون وتر القوس ومن ثمة فإن المجرم يموت فورا ومن الذين يتعرضون للعقاب الأسرى المسيحيون فهم مجرمون أحيانا وفي أوقات أخرى قد يموتون على الخازوق وقد تم ذلك فعلا بوضع الجاني على خازوق حاد ، حيث يغرز في الأجزاء الخلفية من جسده وعلى مقربة من العمود الفقري حيث يظهر فوق كتفيه ويلقى العبيد أحيانا فوق أسوار المدينة، وعلى خطاف حديدي حيث يربطون بفك ودعامات أو بجزء آخر من الجسم، والمعذبون على علم أنهم سيعلقون لعدة أيام وهم أحياء وفي عذاب شديد

يصلبون وتثبت أيديهم وأرجلهم بالأسوار وهي عملية تمت ممارستها أيضا، فالأهلي الجاني باللصوصية تقطع يده اليمنى مصداقا لقوله تعالي:" والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم " (قرآن كريم، 38 المائدة)، وتوثق حول رقبته بعدها يمتطي حمارا ويسير به في وسط المدينة ووجهه نحو ذيل الحمار، أما أصحاب الجاه والمكانة الاجتماعية فيوضعون مقابل جرائمهم ضد الدولة بين لوحتين ويقطعون بالمنشار إربا إربا، فالنساء اللواتي يتم كشفهن في الزنا نلاحظ أنه لم تكن تطبق الأحكام الشرعية الخاصة بالزنا فالزاني شرعا تثبت في حقه الآية الكريمة :" الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ". لآية 02 من سورة النور.، يثبتن من أعناقهن نحو سارية (عمود) ويقيدن أمام الملأ حتى يختنقن (كاري، 2014، صفحة 28) والقضاء الذي يعالج الجرائم من اختصاصات الباشا ووزرائه والقتل والسرقة وقطع الطريق والإحراق بالعمد والخيانة والزنا جرائم يعاقب عليها بالموت، والتركي يخنق سريا إذا ارتكب جريمة سياسية، أما الأهلي فيشنق في ساحة عمومية آو يقطع رأسه آو أوصاله آو يلقى به من على سور مرتفع خطاف حاد من الحديد أثناء سقوطه ليعرف أبشع أنواع العذاب قبل أن يموت، وحتى في القتل يمكن دفع رشوة للجلاد فيتولى خنق الضحية قبل أن يلقي به من على السور، أما اليهودي فإما أن تقطع يده أو يشنق أو يحرق حيا، أما الجنح وإضرام نيران صغيرة فيعاقب مرتكبها بالغرامة أو الجلد بالسوط أو الأشغال الشاقة مقيدا بالسلاسل، فالقاعدة المعمول بها:" معاقبة شخص بريء بدلا من هروب مجرم" (شالر، 1982، صفحة 46)، والمرأة العاشقة لأسير فإن هناك قانون يتم بموجبه تجريم أية امرأة برميها في البحر، وربط رأسها إلى الأعلى في كيس، أما إذا اختار عاشقها أن يسلم فلا إثم عليها فالأمثلة من هذا النوع لم تحدث للجنس اللطيف وإذا حدثت فهي نادرة كما قيل. (كاري، 2014، صفحة 18).

4. الوضع الاقتصادي (تحصيل الضرائب) :

الجزائر اعتمدت في تحصيل مواردها الداخلية على الزكاة التي تفرض على الماشية بالنسبة للمسلمين والعشور وهي ما تسمى بالضرائب الأساسية أو الاعتيادية التي نص عليها الشرع الإسلامي، وهناك ضرائب بالنسبة لغير المسلمين وهي الغير الاعتيادية كالغرامة أو الخطية والضرائب ذات الطابع الإداري والصبغة الاقتصادية كرسوم الأسواق. والتي كانت تعود بالأموال الطائلة للخزينة حيث ذكر ت غطاس أنه تحصل سيد شيخ البلد من الضرائب سنة 1699م ما قدر بـــ 14948 ريال. (غطاس، 2007، صفحة 188)، كامل المملكة تنتج للداي سنويا في حدود ثلاث مائة ألف دولار وثمن العائدات من حصة الغنائم وملكية الأشخاص الذين يموتون من دون إنجاب، وبالتالي يرثهم الداي ضف إلى ذلك الهدايا من الدول الأجنبية ونشاطاته الخاصة بالنهب تزداد داخل الوطن لتصل إلى مبلغ مماثل للدخل الإجمالي للمملكة ويضيف "من السهل أن ندرك هذه الحسابات المشكوك فيها إلى حد بعيد ومن الصعوبة بمكان لطاغية في حد ذاته أن يقدم تقديرا بينا " (كاري، 2014، صفحة 27). والبايات وحكام الأقاليم هم المسؤولون عن جمع الضرائب بواسطة أعوانهم من العساكر والشرطة يستحوذون على كل ما يقع تحت أنظارهم من أموال الشعب وهذا الظلم الذي لا يطاق جعل الناس يهجرون البلد إلى الجبال (شالر، 1982، صفحة 59). سكان الجبال يمتهنون الرعي وتنتزع منهم الحكومة ضريبة ثقيلة، أما الباي فهو ملزم بالقدوم إلى العاصمة سنويا تسمى الدنوش: هو التقرير المالي والأدبي الذي يقدمه البايات وحلفاؤهم إلى الداي وهي دنوش الصغرى والكبرى وهي مجموع الأموال النقدية والعينية التي تجمع عامة الناس لتقديمها للداي، (الزهار، 1980، صفحة 35-47) و(غطاش، 2007، صفحة 234-**236).** على رأس جيش لجمع هذه الضريبة والعديد من هؤلاء السكان يلجئون إلى أماكن يتعذر بلوغها حتى ينسحب العساكر وذلك من أجل تفادي هذه الضريبة (كاري، 2014، صفحة 17).

ـ الوضع الاجتماعي :

1.5 عادات الجزائريين في الزواج :

تحدث "كاري" عن عادات الجزائريين في الزواج قائلا: "... عندما يريد الرجل الزواج فإنه يسوق عددا من الأنعام إلى الكوخ الذي يقيم فيه والدي خليلته يمتطي العريس صهوة جواد متجها إلى البيت وسط صراخ حشد من الشباب الذين تمت دعوتهم إلى حفل زفاف وعند وصول العروسة إلى كوخ حبيبها، فإنه يقدم لها مزيجا من الحليب والعسل لشربه مع أغنية ملائمة تغنى بالمناسبة، عندها تترجل وبيدها عصا تغرزه في الأرض وتكرر بعض كلمات وثيقة الزواج التالية " بما أن هذه العصا سريع الغرز في الأرض فإني مقيدة بواجبي نحو (كاري، 2014، صفحة 22)، وإنه لا يمكن لأي حدث أن يبعده عني سوى الموت وحدها التي تحرمني من حبه"، بعدها تسوق أنعامه إلى الماء وتعود ثانية لتظهر استعدادها للقيام بأي واجب قد يسند لها وبعدها يدخل الجميع الكوخ وينتهي الحفل بحفاوة كبيرة حيث يتمتع الكل، وبعد حفل الزواج على المرأة أن تلبس النقاب ولن تخرج من الكوخ إلا بعد مدة شهر (كاري، 2014، صفحة 23)، ويمكن للجزائريين أن يتزوجوا بأربع زوجات حسب قانونهم، وعادة ما يرضون باثنتين أو ثلاثة في الغالب، ونادرا ما يرى الزوج زوجته قبل الزواج وعندما يتم الاتفاق يقوم العريس بإرسال هدية من الفواكه والحلوة للعروس ويضيف:" أقاربها المأدبة وموسيقى" (كاري، 2014، صفحة 27)

2.5 عادات الجزائريين في اللباس :

لباس الرجال ما هو إلا قطعة طويلة من اللباس خشن يلف حول الكتفين ويتدنى إلى رسغ القدمين مع قلنسوة من نفس المادة والنساء يعطين قيمة أكثر لملابس الزينة ويعاني الأطفال من عراة القدمين حتى سن السابعة أو الثامنة من العمر (كاري، 2014، صفحة 22)، إذ يلبس الشيخ أو رئيس قبيلة قلنسوة من القماش الفاخر ويدعى هؤلاء في الغالب بالعرب فتقاليدهم ولغتهم ودينهم تحمل صلة تامة مع سكان الجزيرة العربية فهم أقوياء

وبشرتهم داكنة، فالرجال فاعلون والنساء كثيرات الإنجاب والأطفال أصحاء وهم لا يلاقون حادثة الشدة مثل الحياة الضارة في أمريكا الشمالية.

3.5 عادات الجزائريين في الإقامة والأكل:

هناك نوع من الناس يعيشون حياة الترحال خارج المدن من مكان لأخر بحثا عن الكلأ لقطعانهم ومنهم أحيانا من يقوم بدفع أجرة إلى أصحاب الأراضي لاستئجارها بالذرة أو الفاكهة أو العسل أو الشمع أو إنتاج أخر مقابل المال، ميزة المناخ تجعل طريقة الحياة مقبولة وبسيطة على الرغم من أن الخيام بسيطة وأدواتهم قليلة القيمة وإقامتهم قذرة، فالعائلة وحيواناتها الأليفة يضطجعون بشكل مختلط في الخيام معا ما عدا الكلاب التي تترك في الخارج كحراس يقومون بتربية النحل ودودة الحرير بعدد كبير يعيشون أساسا على كسرة خبز والأرز والفاكهة، أما الخمر والمشروبات الروحية فهي في معظمها غير معروفة (كاري، 2014، صفحة 21 ــ 22) ...أما الموريسكيون والعرب فيبدو الاسمان مترادفان فهم فرسان ممتازون لكنهم لصوص فأسلحتهم الرئيسية هي رمح قصير وقوس ولو أنهم أيضا ملمون أيضا باستعمال القوس والبندقية الصغيرة (تسمى المسكيت)، إنه من الخطر السفر في البلاد خشية الوقوع في السلب والسرقة. (كاري، 2014، صفحة 24). نلاحظ أن "كاري" بالغ في الحكم على العرب و الموريسكيين بأنهم لصوص و كأنهم كلهم و هذا تعميم ، نعم يمكن أن يكون البعض منهم و هذا موجود في كل المجتمعات، لكن التعميم هنا غير أخلاقي.

4.5 أخلاق الجزائريين:

نفى "شيمبر " Shmbr - الألماني ــ صفة الكسل عن الجزائريين، فقال: "أن الخمول لم يتسلط بعد على طبيعتهم"، وأنه يفضلهم على سكان الشاطئ الأوربي للبحر الأبيض المتوسط، لأنهم أكثر تدينا وثقافة منهم، فهم، ــ أي الجزائريون ــ على الأقل يستطيعون القراءة والكتابة ويحبون النظام والنظافة، ويمارسون أعمالهم بجد ونشاط وبصورة

منتظمة، ولا يبدون أي تعصب، ويقدم دليلا على عدم تعصبهم هذا فيقول:" أنهم أعاروه ثيابهم وأدخلوه مساجدهم والتفوا حوله ليسلموا عليه ويسألوه عن أحواله... "(دودو، 1989، صفحة 180-181)، أما ماثيو كاري، فله رأي آخر بالنسبة للعمل إذ يقول: "يقضي الرجال والنساء في الجزائر الجزء الأكبر من وقتهم في الكسل، فالرجال يحتسون القهوة ويدخنون والنساء تنشغلن في إعداد الطعام والاستحمام، وزيارة قبور أهاليهم والتنزه في الحدائق (كاري، 2014، صفحة27). في هذه النقطة بالذات يشير الرحالة النمساوي "أدولف شترال" إلى ما طرأ على طبيعة الجزائريين بفعل احتكاكهم بالدخيل الأجنبي، من ذلك أنه لا يوجد من يفوق الجزائري في تعاطيه للنبيذ، فهو لا ينقطع عن تناول الخمر إلا عندما يفقد الشرارة الأخيرة من وعيه (دودو، 1989. صفحة 181) ، يقول "كليمانس لامبينغ" (وصل الجزائر 1839) (دودو، 1975، صفحة 92): "أن بعض طبائع سكان "القليعة" وخصالهم الحميدة بدأت تزول بسبب اختلاطهم بالفرنسيين ــ (دودو، 1975، صفحة 93)، أما "موريتس فاغنر Maurice waner" فيذكر أن بعض المقاهي في مدينة الجزائر قد تحولت إلى بؤر للفساد والانحراف الأخلاقي، إذ تجتمع فيها حثالات البشر من كل جنس ودين، فكان فيهم المسلم واليهودي والأوربي والإفريقي، فتختلط أصوات السكارى رجالا ونساء بأصوات الآلات الموسيقية بشكل غريب (دودو، 1989، صفحة 83)، ولا شك أن ذلك كله ضربة أصابت أركان المجتمع الجزائري وزعزعت قيمه الأصيلة وعادته العريقة بفعل احتكاكهم بالفرنسيين الذي استطاعوا أن يستميلوا فئة من الجزائريين و يغيروا طبائعهم .

6. الدين والثقافة :

1.6 الدين: أشاد "موريس فاغنر Maurice waner" هو الآخر بخصال الجزائريين وأخلاقهم، فقال عن تدينهم: "ليس هناك مسلم راشد لا يسرع إلى تلبية نداء الصلاة، فلا الشيخوخة ولا الثروة تحول بينه وبين المضي إلى بيت الله، وكانت المساجد، وعددها

آنذاك تسعة وثلاثون، دائما مكتظة بالمصلين، كما ذكر أن الجزائريين يتشددون في المحافظة على صيامهم". ويضيف :" إن مفهوم الحرية عند الجزائريين لا يصل إلى الحد الذي تصبح فيه الفوضى عملا مباحا، والجريمة شيئا لا يتطلب العقاب (دودو، 1989، صفحة 85)، ويضيف شيمبر: "ولكنهم لا يرضون بالتعدي على حرماتهم وتقاليدهم الدينية" (دودو، 1975، صفحة 16). كانت الثقافة الدينية هي الثقافة السائدة بالجزائر خلال العهد العثماني،مما أدى انتشار ظاهرة التصوف وسيطرتها على توجيه مسار الحياة الاجتماعية والسياسية والروحية وحتى العلمية منها بوجه لم يسبق لهذه البلاد أن عرفت مثيلا له وذلك بتشجيع من الحكام الذين كانوا يعتقدون في الطريقة، فكثر الإنتاج في هذا الميدان وتنوعت الكتب والرسائل والمنظومات التي تتناول التصوف من قريب أو بعيد، كالأذكار والأوراد والردود والمناقب والمواعظ والحكم والشروح الخاصة بالقصائد الصوفية والمدائح النبوية التي تنظر إلى الرسول صلى الله عليه وسلم نظرة صوفية وروحانية (garrot, ,1910,p621).

2.6 الثقافة :

الشعب الجزائري في العهد العثماني يتكلم بصفة عامة لغات مركبة من العربية والموريسكية وبقايا الفينيقية القديمة فجميع أصناف الأهالي وفي الجزء الأكثر منهم يفهمون لغة الفرنكا (هي لهجة خاصة بالبحر المتوسط ومركبة من عدة لغات عربية اسبانية ايطالية تركية وفرنسية يتعامل بها التجار المقيمون بمدينة الجزائر وهذه اللهجة هي القناة الإعلامية للناس الذين لا يفهمون بعضهم بعضا إلا من خلال هذه اللهجة ذاتها وتتم صفقة التجارة العمومية للبلاد عن طريق اللسان التركي (كاري، 2014، صفحة 26)، ومما يؤكد انتشار التعليم في الجزائر قبل الاحتلال، قول "شيمبر Wilhelm Shmbr": لقد بحثت قصدا عن عربي واحد في الجزائر يجهل القراءة والكتابة، غير أني لم أعثر عليه في حين أني وجدت ذلك في بلدان جنوب أوربا، فقلما يصادف المرء هناك من

يستطيع القراءة من بين أفراد الشعب (دودو، 1975، صفحة 13)، لكن ما يجدر التنبيه إليه هو أن هذا التعليم الواسع الانتشار في الجزائر آنذاك، كان يعاني من عدة نقائص، منها أنه كان يهتم بعلوم اللغة والدين من فقه وتفسير وحديث ونحو وصرف، في حين أهملت العلوم الأخرى كالفلك والطب والكيمياء وغيرها من العلوم التي برع فيها العلماء المسلمون من قبل، لذلك يقول "شيمبر": إن الحضر ملمون بالعلوم، ولكنهم لا يهتمون بها، فإذا حفظ أحدهم القرآن وتعلم الكتابة وأصبح في مقدوره أن يفسر القرآن فإنه يعد عالما كبيرا. (دودو ، 1975، صفحة 14).

يستنتج مما سبق ما يلي:

عرفت الجزائر خلال الفترة العثمانية عدة رحلات للأوربيين من علماء وسياسيين وأدباء ورجال دين منهم ألمان ونمساويين واسبان وفرنسيين وانجليز وأيرلنديين وغيرهم

ــ من هؤلاء الرحالة نجد: الرحالة الايرلندي الأصل الأمريكي الجنسية "ماثيو كاري" الذي قدم للجزائر أواخر القرن 18 وبقي إلى غاية بداية القرن 19 م

ــ تناول الرحالة "كاري" عدة جوانب في وصفه منها وصفه لبلاد الجزائر جغرافيا وطبيعيا منها: الجزائر وقسنطينة والقل وتلمسان ووهران وسطيف وغيرها.

ــ شخصية "كاري" تتميز بالتطرف والغلو والمبالغة في الوصف والميل كثيرا لابراز الجانب السلبي دون إشارة لأي جانب إيجابي

ــ ركز أكثر على الجانب السياسي وتحديدا حديثه عن نظام الحكم العثماني في الجزائر الذي وصفه بأنه حكما يتميز بالظلم والاستبداد والتسلط يتجلى في عبارات منها: ثكنة عسكرية، حب السلطة، الاضطرابات، القتل، الاستبداد، الحكم المطلق .

ــ عدم وجود عدالة في الحكم فبمجرد الاتهام ينفذ الحكم

ــ اعتماد البايات والدايات على القرصنة وسوء معاملة الأسرى والعمل على السلب والنهب واللصوصية والضرائب التي أثقلت الأهالي ومنها الدنوش التي تمنح للداي كل سنة

ــ التفريق بين العناصر التركية والأهالي في الأحكام القضائية إذ التركي يعاقب سرا بينما الأهلي الجزائري يعاقب علنا

ــ تحدث عن عادات الجزائريين في الزواج واللباس والإقامة والإطعام، وهي عادات قد لا تختلف عما جاء به القنصل الأمريكي "وليام شالر" وغيره إلا في بعض التفاصيل

ــ تحدث عن كسل وخمول الجزائريين دون أن يتحدث عن أن هذه الظاهرة ليست عامة وأنما نسبية وهو ما يوحي بأنه له خلفية سياسية على خلاف بعض الأوربيين منهم الألمان الذين وصفوا الجزائريين بالنشاط والحيوية

ــ ما يلفت من نظر أيضا هناك عدم تحديد السنة أو الشهر وإنما يكتفي الكاتب بالقرن التاسع عشر والثامن عشر دون توضيح السنة التي يتحدث عنها خاصة لما كان يتحدث عن الدايات والاغوات.

الخاتمة :

الجزائر بلد كبير وشاسع متعدد الثروات وبه تعداد بشري وغني بالعادات والثقافات المحلية وبالتالي كانت محل اهتمام العديد من الأوربيين الذين بعضهم كان موضوعيا والآخر لم يكن كذلك، ومهما كان فإن هذه الرحلات تعد مصدرا من مصادر كتابة تاريخ الجزائر الحديث لما تضمنته من أبعاد سياسية واجتماعية واقتصادية وثقافية وأمنية وطبيعية وغيرها ، وتبقى هذه الدراسات نسبية وتحتاج إلى تدقيق ونقد ودراسة موضوعية من خلال المقارنة والتحليل والمعرفة العلمية الصحيحة بعيدا عن الأهواء والأحكام الجزافية.

قائمة الصادر والمراجع

ابن الأثير،(1938). الكامل في التاريخ. ج2. دار بيت الأفكار الدولية.

الزهار ،أحمد الشريف. (1980). مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار 1754 – 1830، ط2. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر،

المزاري، بن عودة الاغا .(1990)، طلع سعد السعود في أخبار وهران وأخبار اسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر. ج1. دار البصائر. الجزائر .

(1975). الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان 1830-1855. المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر ،.

دودو، أبو العيد.(1989). الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان 1830-1855. المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر .

شالر، وليام. (1982). مذكرات قنصل أمريكا في الجزائر .الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر.

كاري ،ماثيو. (2014). مختصر في تاريخ الجزائر. طبع وزارة المجاهدين. الجزائر.

سعيدوني، ناصر الدين. (2003). دراسات أندلسية مظاهر التأثير الأيبيري والوجود الأندلسي بالجزائر. ط2. دار الغرب الإسلامي. لبنان .ـــ

غطاس، عائشة. (2007). الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر (1700 – 1830). منشورات ANEP الجزائر.

غطاس ،عائشة. (2007). بايلك الغرب موظفو الإدارة المحلية في الدولة الجزائرية الحديثة ومؤسساتها. منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954. الجزائر.

نايت بلقاسم ،مولود قاسم. (2012). شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل سنة 1830 م .ج1. دار الأمة. الجزائر.

التميمي عبد الجليل، رسالة أهالي الجزائر للسلطان سليم الأول، المجلة التاريخية المغربية، عدد 06، جويلية 1976، تونس، ص ـــص 119 ــ 120 .

بلبراوات، بن عتو محمد. (2008). المدينة والريف بالجزائر أواخر العهد العثماني. أطروحة دكتوراه. جامعة وهران الجزائر.

كليل، صالح. (2007). سياسة خير الدين في مواجهة المشروع الإسباني لاحتلال المغرب الأوسط. رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجيستر. جامعة باتنة. الجزائر.

المراجع باللغة الأجنبية :

garrot, Henry,(1910). histoire général de l'Algérie. Imprimerie perxenzavout bastin Word. paris.